إعجاز القرآن في حواس الإنسان

دراسة في الأنف والأذن والحنجرة

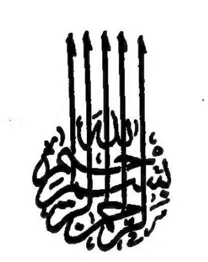
في ضوء الطب وعلوم القرآن والحديث

د. محمد كمال عبد العزيز

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوي - بولاق
القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١



الرياض تليفون ٤٢١٥٦٣٦-٤٢١١٤٣٤
ص.ب ٥٠٦٤٩ - الرياض ١١٥٣٣



مكتبة ابن سينا

سلسلة علمية ثقافية تتناول مختلف العلوم والفنون..

تصدرها

مكتبة القرآن

ويشرف عليها

مهندس / مصطفى عاشور

إهـداء

إلى روح والدى المرحوم الأستاذ / محمد كمال عبدالعزيز الذى علمنى أن أبحث فى القرآن !

•

إلى روح أخى المرحوم الشهيد / هانى محمد كمال عبد العزيز بالمدينة المنورة !



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور **فؤاد أحمد البدرى**
أستاذ ورئيس أقسام الأذن والأنف والحنجرة بكلية الطب
جامعة الأزهـر

حين بدأت فى كتابة مقدمة هذا الكتاب .. احترت كيف أبدأ .. هل أبدأ بتقديم الكاتب وهو زميل وصديق عزيز لدى أثير لقلبى ، أم أبدأ بتقديم الكتاب وهو يتناول موضوعات طالما اشتقت إلى معرفتها وكشف أسرارها - فتولى عنى هذه المهمة وقام بها خير قيام ، جزاه الله عنى وعن القراء خير الجزاء . ولما كان الكتاب هو صنيعة الكاتب ونتاج جهده وتفكيره فسأبدأ بتقديم الكاتب للقارىء .

كاتب هذا الكتاب الدكتور محمد كمال عبدالعزيز طبيب عالم متفقه ، استرعى نظرى أدبه وخلقه وعلمه منذ كان طالباً فى كلية الطب وكنت أستاذاً بها ، وسعدت لما صدق حدسى وكان من أوائل الكلية ، ولما كانت الأرواح جنودا مجندة فقد فرحت لما وجدته بكل تقدير وحب قد اختار نفس المادة التى أدرسها فى الكلية والتى درسها على يدى وهى مادة الأذن والأنف والحنجرة ، اختارها لنفسه وبنفسه

تخصصاً ودراسة . وخلال عمله كطبيب مقيم بالقسم استطعت أن أتعرف على أسرته من خلاله فوجدته ابناً لأسرة طيبة مسلمة ، راعيها رجل تعليم مكافح أكثر ما يكون الكفاح مثابر على طلب العلم لنفسه ولأولاده غاية ما تكون المثابرة.. مؤمنا بالله ورسله وكتبه إلى درجة الأولياء الصالحين ، متقبلا قضاء الله وحكمه فى بعض أبنائه تقبل الصابرين المؤمنين . واستمر هذا الرجل الصالح راعى هذه الأسرة فى طلب العلم لنفسه من البداية حتى توفى رحمه الله وهو يعد رسالة الدكتوراه بعد أن حصل على أكثر من شهادة عالية وترك من بعده أسرة من نتاج عمله الصالح وجهده المثابر تضم أكثر من أستاذ جامعى فى كليات الطب المختلفة . استمر مؤلف هذا الكتاب يصعد درجات السلم الجامعي بصبر وإيمان وجلد حتى حصل على الدكتوراه فى الأنف والأذن والحنجرة وتولى مكانه اللائق به فى صفوف هيئة التدريس بالقسم الذى أتشرف برئاسته .

أما عن الكتاب فهو نفحة من نفحات العلم اختلطت وامتزجت بنسمه من نسمات الإيمان فكان نتاجاً طيباً لحمته العلم الحديث وسداه الإيمان المتأصل فى قلب المؤلف .

الكتاب خطوة من القرن العشرين لشرح بعض إعجاز القرآن الكريم الذى أنزله الله نوراً ويقيناً منذ أكثر من أربعة عشر قرناً للبشرية ، وليتضح لنا فى عصر الفضاء والصواريخ أن الإعجاز العلمى فى القرآن الذى نصل إلى تفسيره وفهمه بجهودنا إلى الآن كان يفوق ما يمكن أن يصل إليه التفكير البشرى فى الأربعة عشر قرناً الماضية ، ولازال فى هذا الكتاب الكريم من الإعجاز العلمى ما سيتكشف لمن بعدنا على مر القرون القادمة والتى يعجز عقلنا البشرى الآن أن يصل إليه ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب فاتحة خير لكاتبه فيتلوه بكتب أخرى تربط بين العلم والإيمان إن شاء الله وصدق الله العظيم ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨].

أستاذ دكتور

فؤاد أحمد البدرى

أستاذ ورئيس أقسام الأذن والأنف والحنجرة

كلية الطب - جامعة الأزهر



مقدمة المؤلف

الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل الإنسان ومن بعد .. إنه نفخة من روح الله تعالى : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ [الحجر : ٢٩] ، وهو بهذه النفخة مستخلف فى الأرض : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ [البقرة : ٣٠] ، ومسخر له كل ما فى الأرض : ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه** ﴾ [الجاثية : ١٣] ، .

بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله تكريم الإنسان ؛ لأنه مستمد من النفخة الآلهية الكريمة .

والله سبحانه وتعالى ﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديرا** ﴾ [الفرقان : ٢] ، قدّر حجمه وشكله ، وقدر وظيفته وعمله ، وقدر زمانه ومكانه ، وقدر تناسقه مع غيره .

إن هذا التركيب الإنسانى ليدعو إلى الدهشة حقاً ، وينفى فكرة المصادفة نفياً باتاً ، ويظهر التقدير الدقيق الذى يعجز البشر عن تتبع مظاهره .

وكلما تقدم العلم البشرى ، فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب فى خلق الإنسان اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآنى ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[الذاريات : ٢١] ، حيث إنه

لا مكان فى هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة ، وإن كل أمر لحكمة ، وإن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء .. فهناك دائماً الإرادة المديرة ، والمشيئة المطلقة .. والله يخلق ما يشاء ويختار .

والقرآن يوجه القلوب والعقول دائماً إلى مشاهد هذا الكون ، ومشاهد خلق الإنسان ، ويربط بين هذه المشاهد وبين العقول والقلوب ، ويوقظ المشاعر لاستقبالها بحس جديد متفتح ، يتلقى الأصداء والأضواء ، وينفعل بها ويستجيب ، ويسير فى هذا الكون ليلتقط الآيات المنثورة ، ويرى فيها قدرة الصانع ، ويستشعر آثار هذه القدرة فى كل ما يلمسه حسه ، وكل ما يلتقطه سمعه ، ويتحد من هذا كله مادة للتدبر والتفكر والاتصال بالله .

إن تلاوة كتاب الله تعنى تلاوته عن تدبر ، ينتهى إلى إدراك وتأثر ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور** ﴾ [فاطر : ٢٩ ، ٣٠] .

والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب ، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية . يعرفونه بآثار صنعته ، ويدركونه بآثار قدرته ، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه ، ومن ثم يخشونه حقاً ، ويتقونه حقاً بالمعرفة الدقيقة ، والعلم المباشر ، وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة ، فمن يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يعرف وبما يرى ويسمع وبما يجرب ، ينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات ، أما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة فهم جامعو معلومات وليسوا بعلماء ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

هذا المخلوق الإنسانى هو العجيبة الكبرى فى هذه الأرض ، ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة فى كيانه ، حين يقفل قلبه عن الإيمان ، وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة فى تكوينه الجسمانى ! عجيبة فى تكوينه الروحى ! هو عجيبة فى ظاهره وباطنه .

ونزعم أنك جرم صغـير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين .. فلمسة اليقين هى التى تحيى القلب فيرى ويدرك .. وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد جوفاء جامدة وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهى المفتوح عمى العيون غلف القلوب ، وفى آذانهم وقر لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ، لأن لمسة اليقين لم تمس قلوبهم ، وقد يكون فيهم علماء ولكنهم ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا** ﴾ [الروم : ٧] . أما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم .

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه ، التقى بأسرار تدهش وتحير : تكوين أعضائه وتوزيعها ، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف .. كيفية السمع وكيفية البصر ودورة الدم فى القلب ، وتناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها الكامل الدقيق .. وكل عجيبة من هذه تنطوى تحتها عجائب ، وفى كل عضو بل كل جزء من عضو خارقة تحير الألباب .

كيفية إدراكه للمدركات ، وطريقة حفظها وتذكرها .. هذه المعلومات والصور المختزنة أين ؟ .. وكيف ؟ .. هذه الصور والمشاهد والأصوات كيف انطبعت ؟ وأين ؟ وكيف تستدعى فتجىء ؟ وذلك

فى الجانب المعلوم من هذه القوى ، فأما المجهول منها فأكثر وأكبر . تظهر آثاره بين الحين والحين فى لمسات وإشراقات ، فتدل على ما وراء الظاهر من الغيب المجهول .

إن وقفة أمام اللحظة التى يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض ، وهو ينفصل عن أمه ، ويعتمد على نفسه لتحير العقول وتدهش الألباب .

إن وقفة أخرى أمام اللحظة التى يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات بل أمام النطق ذاته ، نطق هذا اللسان ، وتصويت تلك الحنجرة ، إنها عجيبة ، عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيراً ، ولكن الوقوف أمامها لحظة فى تدبر يحدد وقعها . إنها خارقة مذهلة تنبىء عن القدرة التى لا تكون الا لله .

فى هذا المتحف الإلهى العجيب الذى يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر ، فكما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى فى هذه الأرض فى جميع العصور ، لا توجد حنجرتان تحدثان صوتين متماثلين على الرغم من تشابه تركيبهما التشريحى ، وكيفية أدائهما ، للعمل ، فهذا صوت عذب ، وذاك صوت أجش ، وهذا له نبرة ذات رنين رقيق ، وذاك له نبرة مزعجة .

هذه العجائب لا يحصرها كتاب ، فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات ، والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم ، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ؛ ليستيقظ لهذا المتحف الإلهى المعروض للأبصار والبصائر .

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ . [فصلت : ٥٣] .

الأذن وحاسة السمع
بـين
القرآن والسنة والطـب



السمع دليل على قدرة الله ووحدانيته

﴿ قُلْ : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ، انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

ذلك مشهد تصويرى رائع يجسم فيه القرآن عجز المشركين أمام بأس الله من جانب ، وحقيقة ما يشركون به من دون الله من جانب آخر . إنه مشهد يهزهم من الإيمان . إن خالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك ما فى هذا المشهد التصويرى من جد ، وما وراءه من حق ، فهو قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار ، وأن يختم على القلوب ، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدى وظائفها ، وإنه – إن فعل ذلك – فليس هناك من إله غيره يرد بأسه . إنه مشهد يبعث الرجفة فى القلوب والأوصال .

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون ﴾ ؟! [يونس : ٣١] .

إن مشركى العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله ، فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ، ليصحح لهم ، عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطرى ذلك الخلط والضلال .

قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟
أم من يملك السمع والأبصار ؟

من يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها أو يمرضها ، ويصرفها إلى العمل أم يلهيها ، ويسمعها ويريها ما تحب وما تكره .

ولا يزال البشر يكشفون عن طبيعة السمع والأبصار ، ومن دقائق صنع الله فى هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة . إن تركيب الأذن الدقيقة وطريقة إدراكها للذبذبات ، لعالم وحده يدير الرؤوس ، عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التى يعدها الناس من معجزات العلم فى العصر الحديث ! وإن كان يهولهم ويروعهم ويبهرهم جهاز يصنعه الإنسان ، لا يقاس فى شىء إلى صنع الله ، بينما هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهٰية فى الكون ، وفى أنفسهم كأنهم لا يبصرون ولا يدركون !

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [المؤمنون : ٧٨] .

جولة توقظ الوجدان إلى دلائل الإيمان .

لو تدبر الإنسان خلقه وهيئته ، وما زُوّد به من حواس وجوارح لوجد الله ، ولاهتدى بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الأحد .

هذا السمع كيف يعمل ؟ وكيف يلتقط الأصوات ويكيفها ؟

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى ، وطريقة عملها ، يُعد كشفاً معجزاً فى عالم البشر ، فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ، ذلك التناسق الملحوظ الذى لو اختلت نسبة واحدة من نسبه فى طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفُقد الاتصال بين الكون والإنسان ، وما استطاعت الأذن أن تلتقط صوتاً ، ولا استطاعت العين أن تلتقط ضوءاً ولكن القدرة المدبرة نسقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذى يعيش

فيه ، فتم هذا الاتصال .

﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [السجدة : ٩] .

هذا عرض لقضية الألوهية والوحدانية فى صورة نشأة الإنسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك ، ... والناس بعد ذلك قليلاً ما يشكرون . أين تلك النقطة الصغيرة المهينة من ذلك الإنسان الذى تصير إليه فى النهاية . لابد أنها قوة الله المبدعة التى تصنع هذه الخارقة ، والتى تهدى تلك النقطة الصغيرة الضعيفة إلى اتخاذ طريقها فى النمو والتطور من هيئتها الساذجة إلى ذلك الخلق المعقد المركب العجيب !!

هذا الانقسام فى تلك الخلية الواحدة والتكاثر ، ثم التنويع فى أصناف الخلايا المتعددة ذات الطبيعة المختلفة ، والوظيفة المختلفة التى تتكاثر بدورها لتقوم كل مجموعة منها بتكوين عضو خاص ذى وظيفة خاصة .

إنها يد الله التى سوت هذا الإنسان ، وإنها النفخة من روح الله فى هذا الكيان ، التى جعلت من هذا الكائن العضوى إنسانا ذا سمع وبصر وإدراك إنسانى مميز عن سائر الكائنات العضوية الحيوانية .

إن حاسة السمع وحدها لخارقه عجيبة تستحق أن يقف الإنسان أمامها موقف العاجز عن العلم القاصر عن المعرفة ، فحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء السمع التعرف - يقيناً - على كيفية التقاط الأذن للموجات الصوتية بذبذباتها المختلفة ، ووضعت نظريات عديدة ومختلفة ومتباينة لتفسير هذه الخارقة العجيبة ، وإذا تعددت النظريات والافتراضات دل ذلك على عجز العقل البشرى عن إدراك ماهية وحقيقة صنع الله الذى أتقن كل شيء . إن نعمة السمع لا يدرك قيمتها إلا من حرم منها .

﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [الملك : ٢٣] .

السمع معجزة كبيرة عُرف عنها بعض خواصها العجيبة .

وللعلم الحديث محاولات فى معرفة شىء عن معجزة السمع .

يقول الأستاذ عبدالرازق نوفل فى كتابه الله والعلم الحديث : « تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ، ولا يعلم إلا الله أين ننتهى » .

إن نظرة فى الناحية التشريحية والوظائفية لأذن الإنسان لتدعو إلى الدهشة ثم لا يتمالك الإنسان المدرك العاقل إلا أن يسجد لهذه القوة المبدعة الخالقة .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحـــــد

وتتكون الأذن من ثلاثة أجزاء : أذن خارجية . ثم أذن وسطى ، ثم أذن داخلية . أما الأذن الخارجية فتتكون من صوان على شكل بوق يقوم بتجميع الأصوات من الاتجاهات المختلفة المحيطة بالإنسان لتركيزها على فتحة القناة السمعية الخارجية التى تؤدى بدورها إلى القناة السمعية الخارجية . ويقول علماء التشريح المقارن : إن صنوان الأذن فى الحيوانات التى تعتمد أساساً على حاسة السمع فى إدراك ما حولها من أعداء أو حركة يكون كبيراً لكى يلتقط أكبر ما يمكن التقاطه من الموجات الصوتية المحيطة . أما القناة السمعية الخارجية فتكون على شكل متعرج غير مستقيم وذلك حماية للأجزاء الداخلية وطبلة الأذن من أى جسم غريب يدخل الأذن ، بالإضافة إلى أنها تحتوى على غدد تقوم بإفراز مادة شمعية لاصقة تتلصق بها الأتربة والأجسام الغريبة . هكذا خلق الله الأذن تحمى نفسها بنفسها .

أما طبلة الأذن ذلك الغشاء الرقيق الذى لا يتعدى سمكه الملليمتر ، فإنه يقوم بالاهتزاز استجابة لما يقع عليه من الموجات الصوتية . وينقل هذه الاهتزازات بأمانة بالغة دون أن يغير فيها بالزيادة أو النقص إلى أجزاء الأذن الوسطى .

والأذن الوسطى هي حجرة صغيرة ذات جدران ستة ، لا يتعدى طولها وعرضها سنتمتراً ونصفاً ، ويحتوى هذا الحيز الضيق على ثلاث عظيمات عجيبة فى شكلها وتناسقها وحجمها متلاصقة بجوار بعضها البعض ، تعمل فى انتظام وتناسق وتكامل ، تهتز معاً استجابة لهزات غشاء الطبلة ، وتربط هذه العظيمات ببعض أربطة وعضلات متناهية فى الصغر ولكنها عظيمة فى الوظيفة حيث تقوم بحماية هذه العظيمات الصغيرة من التفكك نتيجة موجات صوتية عالية فى التردد .

وتقوم طبلة الأذن وهذه العظيمات الثلاث بتكبير الصوت داخل أذن الإنسان إلى ما يقرب من نحو عشرين مرة .

أما الأذن الداخلية فإنها عجيبة العجائب ولغز يحير الألباب وتتيه العقول فى تركيبه ووظيفته ، تلك القوقعة العظمية التى لا يزيد طولها أو حجمها عن نصف السنتيمتر ويتفرع منها ثلاث قنوات عظمية أيضا فى اتجاهات مختلفة ، تقوم بوظيفتين حيويتين : استقبال الموجات الصوتية القادمة من الأذن الوسطى لإرسالها على هيئة إشارات إلى العصب السمعى ، والوظيفة الأخرى هى التحكم فى توازن الجسم على الأرض أو فى الفراغ ، وحقيقة الأمر أن العلم لا يعرف حتى هذه اللحظة عن كيفية قيام هذه العضو الصغير بهاتين الوظيفتين الخطيرتين .

يقول الأستاذ عبد الرازق نوفل فى كتابه الله والعلم الحديث « إن الاهتزاز الذى يحدثه الصوت فى الهواء ينتقل إلى الأذن ، التى

تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن ، وهذه تنقله إلى التيه داخل الأذن » .

« والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة ، وفى القسم اللولبى وحدة أربعة آلآف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع فى الرأس » . فما طول القوس منها ؟ وما حجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التى تبلغ عدة الآلاف كل منها ركب تركيباً خاصاً ؟ وما الحيز الذى وضعت فيه ؟ هذا كله فى التيه الذى لا يكاد يرى ! » .

« وفى الأذن مائة ألف خلية سمعية . وتنتهى الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الآلباب » .

وقد نظم الخالق العمل بين هذه الخلايا وكيفها ، فمنها ما يختص باستقبال الأصوات ذات الذبذبات القليلة (الأصوات الغليظة) ومنها ما يختص باستقبال الأصوات ذات الذبذبات الكثيرة (الأصوات الرقيقة) فسبحان من أعطى كل شيء خلقه .

وداخل هذه القوقعة سائل له تركيب كيماوى خاص لم يتعرف عليه العلم إلا حديثا ويختلف تماماً فى تركيبه الكيماوى عن السائل الذى بدوره خارجه ولا يفصل بينهما إلا غشاء رقيق فما كمية هذا السائل ؟ وما هى طبيعة تركيبه الكيماوى ؟ وما حقيقة مصدره ومنتهاه ؟ وما وظيفته ؟ وكيف يكون فى حركة مستمرة دائبة ؟ . مسائل لا يعرف عنها العلم إلا مجرد الافتراضات والتكهنات .

ولقد قدر الخالق كمية هذا السائل بقدر معلوم وبحساب محسوب بحيث إذا زاد عن كميته الطبيعية أحدث ذلك خللاً واضحاً فى توازن الجسم ، فالله سبحانه وتعالى « خلق كل شيء فقدره تقديراً » ، ﴿ **وكل شيء خلقناه بقدر** ﴾ . وهذا السائل الليمفاوى فى حركة

دائبة وتجديد مستمر لا ينقص ولا يزيد ، وكأنه بحركته هذه دائم التسبيح لله ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ .

أما مركز السمع فى المخ ، فإنه حقاً لأحدى آيات الله فى خلقه التى يقف أمامها العلم الحديث عاجزاً تماماً عن تفسير ماهيته أو طبيعته . كيف يستقبل الصوت بذبذباته المختلفة ؟ كيف يفسر الأصوات المختلفة ؟ أين وكيف يختزنها ؟ لا يعرف العلم إلا أعصاباً تحمل إشارات كهربائية داخله إلى المخ ثم أعصاباً تحمل إشارات كهربائية أخرى تخرج من هذا المعمل الرهيب لتحمل رسائل وأوامر إلى مجموعات أخرى من الخلايا والأعصاب والعضلات .

نظريات عديدة وافتراضات كثيرة وضعت لمحاولة تفسير كيفية السمع ، ولكنها جميعاً عاجزة كل العجز أمام هذه القدرة الآلهية الرهيبة التى تعد سراً من أسرارها ، والتى إن دلت على شيء فإنما تدل على قدرة الله ووحدانيته .

ونظراً لأهمية حاسة السمع فى الإنسان ، حيث إنها من أهم روابط الإنسان بالمجتمع فقد سخر الله لها طريقين : أحدهما عن طريق العصب السمعي ، والآخر يسلك طريقه عن طريق عظام الرأس والجمجمة ، حتى إذا ما حدث عطل أو خلل فى أحدهما ، كان الطريق الآخر سليماً ويؤدى وظيفته .

ولقد حفظ الله الأذن الداخلية داخل هذه القوقعة العظمية وصانها فى قرار مكين كما حفظ أيضا الأذن الوسطى داخل حجرة عظمية لا ينالها أذى ولا ضرر .

وعلى هذه الهبات الضخمة التى أعطاها الله للإنسان ، لينهض بتلك الأمانة الكبرى ، فإنه لم يشكر ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ . وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكرهم القرآن فى هذا

المجال ، ويذكر كل جاحد وكافر ، لا يشكر نعمة الله عليه ، وهو لا يوفيها حقها لو عاش للشكر دون سواه .

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجلعناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الإنسان ١ - ٣]

إيحاءات كثيرة تفيض من وراء صيغة الاستفهام فى هذا المقام .

واحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة ، وهى تدفع بهذا الكائن الجديد (الإنسان) إلى مسرح الوجود ، وتهيىء له الظروف التى تجعل بقاءه وأداء دوره ممكناً وميسراً .

والأمشاج : الأخلاط ، وربما كانت هذه اشارة إلى تكوين النطفة من خلية الذكر وبويضة الانثى بعد التلقيح وربما كانت هذه الأمشاج هى ما تسمى علمياً « **بالجينات** » وهى وحدات الوراثه الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ولصفات الجنين العائلية أخيراً .

خلقته يد القدرة لا عبثاً ، ولا جزافاً ولا تسلية ، ولكن ليبتلى ويختبر ويمتحن ، ومن ثم جعله سمعياً وبصيراً . أى ذوده بوسائل الإدراك ، ليستطيع التلقى ، والاستجابه ، وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار .

لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ، فأراد ربه أن يكون شيئاً مذكوراً ، ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل وتركه يختار .

الله يسمـع !

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ [آل عمران : ١٨١]

﴿ وهو السميع العليم ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ [الأنفال : ٦١] .

﴿ قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٦] .

﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾ [المجادلة ١] .

﴿ إنه سميع قريب ﴾ [سبأ ٥٠] .

الشكوى والنجوى تصل إليه – سبحانه – بلا وساطة ، وإنه لا يهملها ولا يكلها إلى سواه ! يسمع الدعاء ، ويعلم ما فى القلوب ويقضى بما يسمعه ويعلمه قضاء السميع العليم !

ونحن لا ندرى كيفية السمع عند الله سبحانه وتعالى ، ولا داعى للتخيلات التى تقوم على أساس . فهذه من الغيبيات ، وموقفنا إزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هى ، ونؤمن بمدلولها دون البحث عن كيفيتها ، التى لا تفيدنا معرفتها فى شيء ، فضلاً عن أنها غير داخلة فى حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية .

حسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقة ، وأن نستشعر بها ونحن نهم بأية حركة وكلمة .

حسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقة ولو لم ندرك كيفيتها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها ، لا لننفق الجهد عبثاً فى معرفة كيفيتها .

وفى الحديث الشريف : « **تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا** » .

السمع دعامة من دعائم الإدراك السليم والإيمان

﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

هذه الآية ترسم صورة حية للسمع ، وهو من أهم المستقبلات السليمة للمؤثرات الكونية فى الإدراك السليم ، وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار فى صميم الكون .

أولو الألباب وأولو الإدراك الصحيح يفتحون أسماعهم لاستقبال الآيات الكونية ، ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون النوافذ بينهم وبين هذه الآيات ، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم فتنفتح أسماعهم ، وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون ، وتدرك غاية وجوده ، وعلة نشأته بالإلهام الذى يصل بين حواسهم ونواميس هذا الوجود .

هذه الأسماع المتفتحة والقلوب المرهفة ، ما إن تتلقى حتى تستجيب ، وتستيقظ فيها الحساسية الشديدة ، فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتوجه إلى ربها تطلب المغفرة وتكفير الذنوب .

* * *

﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [المائدة : ٨٣] .

يصور القرآن فى هذه الآية ، فئة من الناس لديهم حاسة سمعية مرهفة ، على فطرتها غير معطلة ، ولم يقوموا بتعطيلها ، هذه الفئة إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق بالحق الذى سمعوه ، فالطريق مفتوح بين السمع والعقل والقلب ، فحاسة السمع ينتهى بها المطاف إلى مركز السمع فى المخ الذى بدوره يقوم بفهم وإدراك وتحليل الرسالة السمعية ، ثم يبدأ العقل فى السيطرة والهيمنة على سائر جوارح الجسد وأعضائه لتسير وتعمل طبقاً لهذه الرسالة السمعية .

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ [الأنعام : ٣٦] . إن الناس – وهم يواجهون الحق – فريقان :

فريق حى : أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، مفتوحة . ومن أهم هذه الأجهزة : جهاز السمع . فهؤلاء قوم يسمعون ، وإذا سمعوا الهدى استجابوا له . فهو من القوة والوضوح ما يجعله يتلاءم مع الفطرة ويتلاقى معها .

وفريق ميت : معطل السمع . لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب وهؤلاء فى عداد الموتى الذين لا يسمعون ومن ثم لا يستجيبون ، هؤلاء أموات فى الحياة حتى يرجعوا إلى الله فى الآخرة .

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم

تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ؛ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : ٢٠ -٢٣] .

من يسمع آيات الله وكلماته يطيع الله ورسوله ولا يتولى عنه ، فإذا سمع المؤمنون آيات الله تتلى عليهم ، وأدركوا قدرة الله سبحانه وتعالى ، ووصل هذا الإدراك السليم - الذى نتج عن السمع - إلى قلوبهم وامتزج بدمائهم لا يمكن لهم بعد ذلك أن يتولوا عن الله ورسوله فهم ليسوا كالدواب أو البهائم التى لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ، ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة .

﴿ إن تُسْمِعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ [الروم : ٥٣]

خطاب من الله عز وجل إلى رسوله الكريم ﷺ بأن يقوم بتوصيل الرسالة إلى أسماع وآذان من تهيأت قلوبهم لتلقى آيات الله . وآية السمع الانتفاع بالمسموع . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم ، وعمل الرسول هو أن يسمعهم فيدلهم على آيات الله ، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم « فهم مسلمون » . فالذين يستعدون للاستماع بمجرد أن يدعوهم الرسول يصل ذلك السمع إلى القلب .

﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ [يونس : ٦٧] **﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾** [الروم : ٢٣] .

سكون وحركة يدركان بالسمع . فهذه ظاهرة كونية تعتمد على السمع ، فإذا سمع الإنسان صوت الحركة ودبيب النشاط أدرك أن

النهار سطع ، وإذا سمع سكوناً وهمساً وصمتاً أدرك أن الليل هبط فحق النوم .

آية كونية تعتمد على السمع أكثر من البصر فالذى فقد نعمة البصر يدرك بسمعه حلول الليل وإشراقة النهار . وتعاقب الليل والنهار لآية من آيات قدرة الله وعظمته التى تدعو الإنسان ذا الفطرة السليمة إلى الإيمان الكامل .

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ [التوبة : ٦] .

الاستماع إلى كلام الله ومنهج الله يؤدى إلى الهدى ، وهو يتفق مع الفطرة السليمة والإيمان والأمان .

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ [النحل : ٦٥] .

إذا استمع الإنسان لهذه الآية فلابد أن يتدبر ما يسمعه ، فإحياء الأرض بالماء آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال .

﴿ يأأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : ٧٣] .

دعوة لاستماع مثل عام يضرب ، فإذا ما تم الاستماع إلى هذا المثل لابد من تدبره وتعقله ، وإذا ما تدبره وتعقله الإنسان صاحب الإدراك السليم لابد أن ينتهى به إلى الإيمان العميق .

هذا المثل يقرر أن كل ما يدعون من دون الله من آلهة مُدّعاة أصناماً أو أشخاصاً تطلبون منهم النصر والجاه - كل هؤلاء - لن يخلقوا ذباباً على صغره وحقارته .

﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسئلكم أجراوهم مهتدون * وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * ءَأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنى إذاً لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ [يسٓ : ٢٠ - ٢٥] .

هذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق . إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة . وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة فى ضميره فلم يطق عليها سكوتاً ، وسعى إلى قومه وألقى بكلمة الإيمان المطمئنة **﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾** وهو يوحى إليهم أن يسمعوها ثم يقولوها كما قالها .

﴿ وإذا صَرفَنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣٠]

﴿ قل أوحى إلىّ أنه استمع نفراً من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا * يهدى إلى الرشد فأمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ [الجن : ١ - ٢] **﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا ﴾** [الجن : ١٣] .

إنها شهادة من عالم آخر ، شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد ﷺ ، فها هم وراءهم ومسهم منه ما يدهش وما يذهل وملأ نفوسهم وفاض حتى لم يملكوا السكوت على ما سمعوه ، فانطلقوا يحدثون فى روعه المأخوذ ، ووهله المشدوه عن هذا الحادث العظيم الذى شغل السماء والأرض ،

والجن والإنس والملائكة والكواكب ، وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله .

ويرسم النص مشهد هذا النفر ، وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع فى حسهم منه من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع ﴿ **فلما حضروه قالوا أنصتوا** ﴾ .. وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع ﴿ **فلما قُضى ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ .. وذلك تصوير الأثر الذى انطبع على قلوبهم من الإنصات للقرآن . فقد استمعوا صامتين حتى النهاية . فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه ، وهى حالة من امتلأ حسه بشىء جديد وحفلت بمشاعر مؤثرة غلابة وأدركوا الصلة بين هذا الكتاب وما أنزل إلى موسى بمجرد سماع آيات هذا القرآن ، وهى شهادة بعيدة عن مؤثرات الحياة البشرية بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن .

﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [ق : ٣٧] .

إنه ليكفى للاعتبار والذكرى أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعى ، فتفعل القصة فعلها فى النفوس . وإن فى مصارع الغابرين لذكرى لمن كان له قلب .

﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ [الملك : ١٠] الذى يسمع أو يعقل ، لا يورد نفسه هذا المورد المهلك ، فالذى يسمع آيات الله ويعقلها يحميه سمعه من أن يكون من أصحاب السعير .

﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم**

واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكباراً ﴾ [نوح : ٧] .

صورة غليظة للإصرار والعناد ، صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار ، تبرز من ثنايا ملامح الطفولة البشرية العنيدة ، تبرز فى وضع الأصابع على الأذان ، وستر الوجوه والرؤوس بالثياب .

يجعلون أصابعهم فى آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها ، وقطع همزة الوصل بين الأذن والعقل والقلب ، وتعطيلاً لهذه الحاسة الدقيقة التى هى بمثابة الشرارة الأولى فى حركة الإيمان .

مسئولية السمع فى القرآن

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

إنها مسئولية الجوارح والحواس والعقل والقلب . إنها أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما سمع ونطق الإنسان .

كلمات قليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل .

القرآن يجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد . فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو منهج القرآن الكريم . لا مجال للظن والشبهة فى عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولامجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية فى عالم البحوث والتجارب والعلوم .

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾

[القصص : ٥٥] .

ومن مسئولية السمع أيضا الابتعاد عن فارغ الحديث ، الذى لا طائل تحته ، ولا حاصل من ورائه ، وهو الهذر الذى يقتل الوقت دون

أن يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً ولا معرفة مفيدة ، وهو البذىء من القول الذى يفسد الحس واللسان .

والآذان المؤمنة لا تستمع إلى ذلك الهذر ، فهى مشغولة بتكاليف الإيمان ، متطهرة بنوره .

حاسة السمع بين الإيمان والكفر والنفاق

﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواءٌ عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ [البقرة : ١ – ٧] .

الصورة الأولى

المتقون هم **﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾** فلا توجد حواجز بين أرواحهم وجوارحهم وبين ما وراء الكون من حقائق وقوى . الإيمان بالغيب هى العتبه التى يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرئيه الحيوان الذى لا يدرك إلى ما تدركه حواسه . المؤمن يدرك ما لا تدركه حواسه فى حيزها الضيق المحدود ، فهو يمتد بسمعه وبصره وشفافية قلبه وروحه إلى الغيبيات ، فلا حجب ولا حواجز بين حواس المؤمن وبين عالم الغيبيات والمجهول .

المؤمنون يمتلكون سمعاً ربانياً ، وبصراً ربانياً ، وقوة بطش ربانية ، « **ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل ، حتى أحبه فإذا**

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها » ، فمن كان متقياً مؤمناً يبصر مالا يدركه الآخرون . ويسمع ما لا يسمعه الآخرون ، ويملك من قوة البدن والبرهان ما لا يملكه الآخرون .

المؤمنون أصواتهم تبلغ الآفاق ، وأسماعهم تلتقط موجات ما عبر الفضاء :

جاء فى كتاب (**حياة الصحابة**) لمؤلفه محمد يوسف الكاندهلوى بالجزء الثالث : « روى ابن مردويه عن ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أنه كان يخطب يوم الجمعة فعرض فى خطبته أن قال : ياساريه الجبل ، من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم إلى بعض ، فقال لهم على رضى الله عنه : ليخرجن مما قال ، فلما فرغ سألوه ، فقال : وقع فى خلدى (قلبى) أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون على جبل ، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد وإن جاوزوا هلكوا ، فخرج منى ما تزعمون أنكم سمعتوه ، قال :فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر فى ذلك اليوم ، قال فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علينا، كذا فى الإصابة ج ٢ ص ٣ ، وأخرجه أيضا أبو نعيم فى الدلائل ص ٢١٠ وأبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين ، وأخرجه الخطيب من رواة مالك وابن عساكر عن ابن عمر ، كما فى المنتخب ج ٤ ص ٣٨٦ . وفى روايتهما : فقال الناس لعلى رضى الله عنه : أما سمعت عمر رضى الله عنه يقول : ياسارية ! وهو يخطب على المنبر ؟ قال : ويحكم ! دعوا عمر فإنه ما دخل فى شىء إلا خرج منه . قال ابن كثير فى البداية ج ٧ ص ١٣١ : وفى صحته من حديث مالك نظر — انتهى » .

صوت لا تحجبه حواجز لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وسمع لا

تعوقه جبال ولا صحراء لسارية قائد جيش المسلمين. وهو ما يعبر عنه علم النفس والسلوكيات بما يسمى "Telepasy" أى إدراك ما وراء الطبيعة .

الصورة الثانية

أما الصورة الثانية فهى صورة الكافرين : ذات النوافذ المغلقة والوشائج المقطوعة ، ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** ﴾ ، فلا تصل إلى قلوبهم حقيقة من الهدى ولا يصل إلى اسماعهم إلا ما يحيط بهم فى حيزهم الضيق فقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على ابصارهم جزءاً وفاقاً على استهتارهم .

﴿ **وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم، ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون** ﴾ [المائدة : ٧١] .

صورة لكفار بنى إسرائيل ومالهم من تاريخ حافل بتكذيب وقتل الأنبياء والأعتداء عليهم وحم يحسبون أن الله لن يأخذهم بالعقاب ولن يفتك بهم .

لقد طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون شيئاً ، وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئاً وإذا سمعوا لا يدركون ولا يفقهون ما يسمعون ، فليس لهم من السمع إلا ذبذبات صوتيه لا توحى إليهم بشىء .

﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

﴿ **وان تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾ [الأعراف : ١٩٨] .

نوع آخر من الكافرين ، سكان جهنم ، لم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة ، ولم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . لقد عطلوا هذه الأجهزة التى وهبها الله ولم يستخدموها .

﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾ [الكهف : ١٠٠ – ١٠١]

هؤلاء هم الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله ، كأن على عينهم غطاء وفى اسماعهم صمماً .

الصورة الثالثة

أما الصورة الثالثة من البشر ، صورة المنافقين :

﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير** ﴾ [البقرة : ١٧ – ٢٠]

هؤلاء قوم لم يعرضوا عن الهدى فى بادىء الأمر ، ولم يصموا آذانهم عن السمع وعيونهم عن الرؤية ، وقلوبهم عن الإدراك كما فعل الذين كفروا ، ولكنهم فضلوا الضلالة على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه ، كالذى استوقد ناراً ، فلما اضاءت له ما حوله لم ينتفع

بها ، عندئذ « ذهب الله بنورهم » الذى طلبوه ثم تركوه ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، جزاء إعراضهم عن النور .

لقد خلق الله الآذان والألسنة والعيون لتلقى الأصداء والأضواء والانتفاع بالهدى والنور ، وهؤلاء قوم عطلوا آذانهم فهم (صم) وعطلوا ألسنتهم فهم (بكم) وعطلوا عيونهم فهم (عمى) .

﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنةَ أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : ٢٥] .

الأكنة : الأغلفة التى تحول دون أن تتفتح هذه القلوب .

الوقر : الصمم الذى يحول دون هذه الآذان أن تؤدى وظيفتها فتسمع .

هذه نماذج بشرية ، تستمع ولكنها لا تعى ولا تفقهه ما تسمعه . لها آذان ولكنها لا تدرك ما تسمعه آذانهم . يسمعون القول وكأنهم لا يسمعونه . آذانهم صماء لا تؤدى وظيفتها . وكأن إدراكهم فى غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الأذان . وأعينهم ترى ظاهراً وكأنها لا تبصر .

كأن ما يرونه ويسمعونه لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم فلا يدركون منه شيئاً .

هم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ، ولكنهم عطلوا السمع والبصر ، وعطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ، فلم تعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدى هذه الوظيفة **﴿ أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى ابصارهم ﴾** [محمد : ٢٣] .

أذنٌ معطلـــة

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة : ١٧١] .

هذه أذن لا تؤدى وظيفتها التى خلقت من أجلها . هذه أذن لا تسمع من الأصوات إلا مجرد صياح أو نداء لا تفقه معناه ولا تدرك حقيقته . إنها أذن الذين كفروا مثلهم كمثل البهيمة التى لا تفقه ما يقال لها ، فإذا صاح فيها راعيها سمعت مجرد صوت لا تدرى معناه . فهؤلاء الكفار هم صم بكم وعمى ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون ، ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون ، وهذه منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره ، ويغلق منافذ المعرفة والهداية .

﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾ [الأنعام : ٢٥] .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم بكم فى الظلمات من يشأ الله يُضْلِلْه ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

يقرر القرآن حال المكذبين وطبيعتهم .. إنهم صم وبكم فى الظلمات .

﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ [يونس : ٤٢] .

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ﴾ [الزخرف : ٤٠] .

﴿ قل إنما أنذركم بالوحى ولا يَسمَعُ الصمُّ الدعاءَ إذا ما ينذرون ﴾ [الأنبياء : ٤٥] .

آذان الكافرين تستمع ولكنها لا تعقل ما تستمع لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدى وظيفتها الحقيقية فالله سبحانه وتعالى أعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ولكنهم عطلوها ولم يستخدموها فهم كالصم والعمى ، ووظيفة الرسول أن يُسمع من يستمغ وأن يهدى من يبصر ، فإذا هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم ، فما للرسول إلى هداهم من سبيل ، فقد قام بواجبه الذى يطيقه ، والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود .

﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون * أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتُوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾

[هود : ١٩ - ٢٤]

لقد أضاع هؤلاء الكفار سمعهم وأبصارهم فلم يهتدوا . صموا عن سماع آيات الله وتدبرها وتعقلها ، وعموا عن رؤية إعجاز الله فكانت النتيجة أن خسروا أنفسهم وهى أفدح خسارة !

ويعرض القرآن صورة حسية لفريقين من الناس :

فريق الكفار : هو أعمى عن رؤية الحق . أصم عن سماع آيات الله . يعطل حواسه ومداركه عن الغاية الكبرى منها ، وهى أن تكون أدوات موصلة للعقل والقلب ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس .

أما الفريق الثانى : فريق المؤمنين يستخدم سمعه وبصره للهداية .

هل يستوى هذان الفريقان ؟!

﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ [الأحقاف : ٢٦] .

تشير هذه الآية الكريمة إلى قوم هود ، هؤلاء القوم مكنهم الله من القوة والمال والعلم والمتاع وآتاهم الأسماع والأبصار والأفئدة ، وكلها من دعائم الإدراك السليم ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم فى شيء إذ أنهم عطلوها وحجبوها **﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾** .. والجحود بآيات الله يطمس الحواس والمدارك ويفقدها الحساسية والإدراك .

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] .

يُقر القرآن أن المشركين الكفار لهم قلوب : ولكن لا يدركون بها ، ولهم آذان : ولكن لا يسمعون بها الأحاديث عن تلك الدور

المهدمة ، والآبار المعطلة ، والمنازل الموحشة لأصحاب القرى الظالمة الخاوية على عروشها .

فهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون .

ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى ، ولو كانت هذه الآذان سامعة لجاشت بالعبرة وقادت القلوب إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة فى مصارع الغابرين وهى حولهم كثير .

﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ [الروم : ٥٢]

﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ [النمل : ٨٠] .

﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ [فاطر : ٢٢] .

الرسول ﷺ يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء .

والذى لا يستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ فى القلوب أصم ولو كانت أذناه تسمعان ذبذبة الأصوات .

فهؤلاء لا تعى آذانهم ، ولا تتحرك قلوبهم فهم فى صورة الموتى لأن الموتى لا يشعرون ولا يسمعون .

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ﴾ [لقمان : ٧] .

كأن فى أذنيه ثقلاً يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم .

﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

الذى يفرق الإنسان عن البهيمة هو إدراكه وتعقله لما يسمعه من آيات وبراهين وحجج ، فالإنسان حين يتجرد من خصائص السمع والتعقل والتدبر يكون أحط من البهيمة لأن البهيمة تهتدى بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدى وظائفها أداء كاملاً صحيحاً ، بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة .

﴿ كتاب فصلت آياته قرءانا عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ [فصلت ٣ – ٥] .

الكفار يُعرضون فلا يسمعون فعلاً ، ويتحاشون أن يعرّضوا قلوبهم وآذانهم لتأثير هذا القرآن القاهر ، وكانوا يحضون الناس على عدم السماع **﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلك تغلبون ﴾** [فصلت : ٢٦] .

وأحيانا كانوا يسمعون وكأنهم لا يسمعون ، فكأنهم صم . وقالوا قلوبنا فى أغطية فلا تصل إليها كلماتك ، وفى آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك .

﴿ ولو جعلناه قرءآنا أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ءَأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : ٤٤] .

هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء . فقلوب المؤمنين تدرك طبيعته وحقيقته فتهدى به وتشفى .

أما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطهم بشاشة هذا الكتاب فهو فى قلوبهم عمى وفى آذانهم وقرٌ فهم لا ينتفعون منه بشيء لأنهم بعيدون كل البعد عن طبيعته ، هذا القرآن بما يحتويه من آيات بينات ثقيل على آذانهم وقلوبهم ولا تجدهم إلا صماً وعمياً .

قال رسول الله ﷺ : « **خلق الله عز وجل الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب ، وخشاش الأرض ، وصنف كالريح فى الهواء ، وصنف عليهم الحساب والعقاب . وخلق الله الأنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهايم قال الله تعالى : لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، وصنف أجسادهم جساد بنى أدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله** »

ابن أبى الدنيا فى مكائد الشيطان عن أبى الدرداء . جمع الجوامع . الأول ص ٥١٠ ، ٥١١

وأبو الشيخ فى العظمة والمؤلف فى نوادر الأصول : ورقة ٤٠/أ .

وابن مردويه مخطوط .

جزاء من جنس العمـــل

﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءِنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾

[الإسراء : ٩٧ – ٩٨] .

يحشر الله الكفار يوم القيامة فى صورة مهينة مزعجة « على وجوهم » يتكفئون « عمياً وبكماً وصماً » مطموسين ومحرومين من جوارحهم التى تهديهم فى هذا الزحام وذلك جزاء ما عطلوا هذه الجوارح فى الدنيا عن إدراك دلائل الهدى ، وفى النهاية ﴿ **مأواهم جهنم** ﴾ . وتلك نهاية مفرعة ومخيفة ، ولكنهم يستحقونها جزاء تعطيل جوارحهم من سمع وبصر وعقل عن سماع وإبصار وتعقل آيات الله !

﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾

[مريم : ٣٧ – ٣٨]

الكفار فى حال الدنيا لا يسمعون آيات الله ولا يبصرونها ، حينما يكون السمع والبصر وسيلة للنجاة وللهدى أعرضوا عن سماع آيات

الله وإبصار معجزات الله وتدبرها أما الآية فى مشهد الآخرة يكون السمع والبصر وسيلة لإسماعهم ما يكرهون وإبصارهم ما لا يريدون .

﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾

[الأنبياء : ١٠٠] .

هذا حال الكفار فى النار ، محرمون من سمعهم جزاءً وفاقاً لما عطلوا هذه الحاسة فى الدنيا عن سماع آيات الله .

سمع وطاعة

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ [البقرة : ١٠٤] .

الله ينهى الذين آمنوا أن يقولوا للنبى ﷺ « راعنا » – من الرعاية والنظر – وأن يقولوا بدلاً منها مرادفها فى اللغة العربية « انظرنا » .. ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة ويحذرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور : ٥١] .

من علامات الإيمان السماع للكلم الطيب

﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ [الزمر : ١٨] .

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ، يستمعون من القول ، فلتلقط آذانهم أحسنه وأطيبه وتطرد ما عداه فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذى تزك به النفوس والقلوب ، والنفس الطيبة تتفتح للقول الطيب فتتلقاه وتستجيب له . والنفس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له . وقد علم الله فى نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له .

من علامات الكفر السماع للكذب

﴿ يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه . يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب آكالون للسحت ... ﴾ [المائدة : ٤١ - ٤٢] .

تروى هذه الآيات قصة قوم من اليهود يسارعون فى الكفر ، ويتحررون من العقيدة فتقسوا قلوبهم ، وتمضى الآيات فى بيان حال القوم ، وما انتهوا إليه من فساد فى الخلق والسلوك ، حتى أصبح تكرار سماعهم للكذب خصلة لهم .. تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل ، وتتغيظ لسماع الحق والصدق ، وهذه هى طبيعة القلوب حين تفسد ، وعادة الأرواح حين تتطمس .

﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ﴾
[التوبة : ٤٧] .

تحكى هذه الآية الكريمة ، قصة قوم من المنافقين الذين اندسوا فى صفوف المسلمين باسم الإسلام ، وتعرض تخلفهم عن الخروج والغزو مع رسول الله ﷺ ، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادهم اضطرابا وفوضى ، ولأسرعوا بالوقيعة والفتنة ونشر الإشاعات والأكاذيب ، ومن يستمع لهم من المسلمين فى ذلك الحين يكون ظالماً لنفسه ودينه والظلم أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان ، فمن صفات المؤمنين عدم السماع إلى ما فيه فتنة ونفاق .

السماع والإنصات إلى القرآن من موجبات الرحمة

﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾
[الأعراف : ٢٠٤] .

إن الآية الواحدة لتصنع أحيانا فى النفس - حين تستمع لها وتنصت - أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والرؤية والإدراك والطمأنينة والراحة مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه .

وحيثما قرىء القرآن واستمعت له النفس وأنصتت كان ذلك أرجى لأن تعي وتتأثر وتستجيب ، وهذا كله أرجى إلى الرحمة .

إن الاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له - حيثما قرىء - هو الأليق بجلال هذا القول ، وبجلال قائله سبحانه وتعالى .

الإعراض عن سماع آيات الله من موجبات العذاب

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ [الكهف : ٥٧] .

الذين يعرضون عن آيات الله ويستهزئون بها لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن ولا أن ينتفعوا به ، لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقه ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه ، وقدر عليهم الضلال بسبب إعراضهم فلن يهتدوا أبداً .

﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ [الأنبياء : ١ - ٣]

مطلع قوى يهز الغافلين هزاً . الحساب يقترب وهم فى غفلة ، والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى وهم لا يشعرون بخطورته ، كلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار واستمعوه وهم هازلون لاعبون .

﴿ ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم ﴾ [الجاثية : ٧ – ٨] .

استكبار عن سماع كلمة الحق البين . وسوء أدب نحو الله وكلامه ، فالويل والهلاك لهذا الأفاك الأثيم الذى يتعالى عن سماع آيات الله والذى لا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ، الذى تتلى عليه آيات الله ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ولا تتمشى له مع اتجاه .

السمع بين الجنة والنـار

ماذا يسمع أهل الجنة ؟

﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب ، إنه كان وعده مأتيا * لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ [مريم ٦١ - ٦٢] .

صورة للجنة ومن فيها ، فلا فضول فى الحديث ولا ضجة ولا ضوضاء ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضى ، صوت السلام .

﴿ لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾
[الأنبياء : ١٠٢] الحسيس : هو تنقل صوت النار وهى تسرى وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع لذلك نجى الله الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه . وعاشوا فيما تشتهى أنفسهم من أمن ونعيم .

﴿ إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا * وكواعب أترابا * وكأساً دهاقا * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ [النبأ ٣١ - ٣٥]

أسماع مصونة من اللغو مرض التكذيب .. وهى حالة من المتعة والرفعة تليق بدار الخلود .

ماذا يسمع أهل النار ؟

﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا ﴾ [الفرقان ١١ - ١٢]

النار تدب فيها الحياة . تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة ، تراهم من مكان بعيد ، فإذا هى تتغيظ وتزفر ، فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهى تحترق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظاً منهم وهم فى الطريق إليها .. مشهد مرعب يزلزل الأقدام والقلوب .

مواقف لا تسمع فيها إلا همساً ؟

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ [طه : ١٠٨]

صمت وسكون . رهبة وخشوع فالكلام همس والسؤال تخافت ، والجميع منصت . ذلك يوم الحشر .

استراق السمع من صفات الشياطين

﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ [الحجر ١٦ : ١٨] .

﴿ وأنَّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهُباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد لها شهاباً رصداً ﴾ [الجن ٨ - ٩] .

كيف يحاول الشيطان استراق السمع ؟ وأى شىء يسترق ؟ .

كل هذا غيب من غيب الله ، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص ، ولا جدوى فى الخوض فيه ؛ لأنه لا يزيد شيئاً فى العقيدة ، ولا يثمر إلا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه .

الشياطين لا تسمع الوحى

﴿ وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ [الشعراء ٢١٠ : ٢١٢]

ما يليق هذا القرآن بالشياطين ، فالقرآن يدعو إلى الصلاح والإيمان .. والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد . وما هم بمستطيعون أن يأتوا . فهم معزولون عن سماع الوحى .

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات ٦ : ١٠]

من الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان متمرد وتذوده عن الاستماع إلى ما يدور فى الملأ الأعلى ، فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب فتدحره دحراً .

ونحن لا نعرف كيف يتسمع الشيطان المارد ، ولا كيف يخطف الخطفة ، ولا كيف يرجم بالشهاب الثاقب ؛ لأن هذه غيبيات تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كيفيتها ، ومجالنا فيها هو التصديق . وهل نعلم من شيء فى هذا الكون إلا القشور .

سمع خارق للعادة

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يُوزَعُون * حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ [النمل ١٧ – ١٩]

سار موكب سليمان من الجن والإنس والطير فى ترتيب وانتظام حتى إذا أتوا على وادٍ كثير النمل ، قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على سائر النمل بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل وباللغة المتعارفة بينهما – قالت : **﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾** .

وسمع سليمان ما قالت النملة ، ودهش لها ، وانشرح صدره بإدراك ما قالت وتبسم ضاحكا من قولها .. وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة والسمع الخارق وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة واتجه إلى ربه شاكراً نعمته وفضله .

ونحن هنا نقف أمام خارقتين لا خارقة واحدة : خارقة سماع سليمان لصوت النملة ، وخارقة إدراكه وتفهمه لما سمعه من لغة النملة .

أما الخارقة الأولى : وهى سماع سليمان – عليه السلام – لصوت

النملة : فقد أثبتت التجارب العلمية أن الأذن البشرية تسمع تردد الأصوات التى تقع بين ١٠,٠٠٠ إلى ٢٤,٠٠٠ دورة فى الثانية (C.P.S.) فالأصوات التى هى أدنى أو أعلى من ذلك لا تُسمع ولا تقع فى نطاق سمع الأذن . فهل كان تردد صوت النملة فى هذا النطاق حتى يسمعه سليمان عليه السلام ؟ أم كان لسليمان – عليه السلام – حاسة سمع خارقة للعادة حتى يسمع تردد الأصوات التى تقع خارج نطاق السمع البشرى ؟ .

إنها خارقة للعادة . يقف العلم عاجزاً عن تفسيرها . ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ ودليل من دلائل الهزيمة لهذا العلم البشرى القليل .

أما الخارقة الأخرى : وهى تفهم سليمان – عليه السلام – لنطق ولغة النملة : فالمعروف أن للطيور والحيوانات والحشرات وسائل للتفاهم – هى لغاتها ومقاطعها – فيما بينها . وتجتهد علماء هذه الأنواع فى إدراك شىء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن طريق الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان – عليه السلام – فكان شأنا خاصا به عن طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر .

أدب الاستماع

روى ابن اسحاق : قال حدثنى ابن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : حُدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً فى قومه ، قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ – جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيهما شاء ويكف عنا ، فقالوا : بلى

يا أبا الوليد فقم إليه وكلمه - فقام عتبه حتى جلس إلى رسول الله ﷺ - فقال : يابن أخى إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع منى لأعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : « **قل يا أبا الوليد إنى أسمع** » قال : يابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه .. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « **أفرغت ياأبا الوليد ؟** » قال : نعم قال : « **فاستمع منى** » قال : افعل : قال : « بسم الله الرحمن الرحيم » ﴿ **حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾ حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد ثم قال : « **قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك** » ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : إنى سمعت قولاً ما هو بالسحر ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى .. خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه .

تقف هنا وقفة احترام وإجلال أمام صورة رسول الله - ﷺ - وأدب النفس الكبيرة وطمأنينة القلب المؤمنة .. وهو يستمع من عتبة إلى هذه الخواطر الصغيرة التى يعرضها عليه ، وقلبه مشغول بما هو

أعظم ، حتى لتبدو هذه الخواطر مقززة تثير الاشمئزاز .. ولكن رسول الله ﷺ يتلقاها حليماً ، ويستمع كريماً وهو مطمئن هادىء . لا يعمل عينه عن استكمال هذه الخواطر الحقيرة ، حتى إذا انتهى قال فى ثبات وهدوء وسماحة « أفرغت ياأبا الوليد ؟ » حتى إذا قال : نعم قال ﷺ « فاستمع منى » ولا تفاجئه بالقول حتى يقول : افعل ، وعندئذ يتلو رسول الله ﷺ فى طمأنينة وامتلاء روح قول ربه ﴿ **بسم الرحمن الرحيم . حم ....** ﴾ .

إنها **صورة** تلقى فى القلب المهابة ، والثقة والاطمئنان .. ومن ثم كان يملك قلوب سامعيه الذين يقصدون إليه أول الأمر ساخرين أو خائفين . ﷺ .... وصدق الله العظيم ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

السمع شاهد على صاحبه

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءُوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ [فصلت ١٩ : ٢٣] .

إنها المفاجأة الهائلة فى هذا الموقف العصيب .. وسلطان الله الذى تطيفه الجوارح وتستجيب له . حتى إذا ما حشر أعداء الله كالقطيع أمام النار . إذ بشهود عليهم لم يكونوا فى الحسبان . إنها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم . تخرج عليهم لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروى عنهم ما حسبوه سراً ، لقد كانوا يظنون أنهم يستترون من الله ، ويظنون أنه لا يراهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم . وكيف وهم معهم ومن أنفسهم ؟ ها هى الآن تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين وعن رب العالمين .

أذن واعيـــة

﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ [الحاقة ١١ – ١٢] .

تشير هذه الآية إلى مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، مشيرة بذلك إلى مصرع قوم نوح حين كذّبوا ، وحجتنا على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى .

وتلمس هذه الآية الأذن الواعية ، التى تسمع هذه المشاهد الهائلة المروعة ، وتسمع خبر فرعون فى مصر وقرى لوط المدمرة ، وتسمع مصرع قوم نوح حين كذبوا ، وقوم عاد حين أهلكوا بريح صرصر عاتية شديدة البرودة .. وثمود الذين أهلكوا بالصيحة .

والآذن الواعية هى التى تسمع هذه العظات والمشاهد لتصل إلى مراكز الذاكرة فى المخ ثم تعيدها مرة بعد مرة على مر الأيام والسنين كأنها صورة حاضرة ، وحدث مر بالأمس القريب ، فيزداد القلب إيماناً وتقوى خشية ورهبة .

أما الأذن البليدة فحين تسمع عن هذه المشاهد ، وهذه المصارع فلا تكاد تعى منها شيئاً ، ولا تفقه مغزاها ومقصودها ، ومن ثم لا يعقل القلب منها شيئاً ولا يهتدى .

الأذن هى وسيلة الإنسان للاتصال بالعالم الخارجى

﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً﴾ [الكهف : ١١] .

يعرض القرآن الكريم قصة أهل الكهف ، ونومهم فى سبات عميق ثلاثمائة وتسع من السنين ، وقد انعزلوا عن عالمهم ومحيطهم . وقد تبدلت وتغيرت الأحوال من حولهم وهم لا يدركون ولا يحسون ، ولم يكونوا قد وصلوا إلى هذا الحال إلا بعد أن ضرب الله على آذانهم وسلبهم قدرة السمع ، فناموا سنين عديدة ، لا يسمعون صوتاً يزعجهم ، ولا يدركون حركة تؤرقهم .

انقطاع كامل عما يدور حولهم بمجرد انفصال حاسة السمع منهم .

من هنا يدرك أصحاب الألباب والعقول الرشيدة أن الله خلق السمع فى الإنسان لتكون هى حلقة من سلسلة حلقات لاتصال هذا المخلوق البشرى بما حوله من آيات محيطات .

حاسة تصل وتربط الإنسان بآيات الله الكونية طالما يسمع أصواتها وأصداءها

حاسة تصل وتربط الإنسان بالإنسان فى مشارق الأرض ومغاربها وإن اختلفت لقائهم وطريقة تخاطبهم ، ولا يدرك قيمتها إلا من حرم هذه النعمة ، الذى يرى هذا العالم من وراء حاجز زجاجى ، يرى ولا يفهم ، لأنه لا يسمع .

والطفل فى عاميه الأولين يسمع الكلام ويختزنه ، حتى إذا ملك القدرة على الكلام ردد ما يسمعه ، وألقى بأول الروابط بينه وبين عالمه ، ثم ينمو ذهنياً واجتماعياً ويرتبط بالآخرين خلال جهازه السمعى . والذى يولد أصم لا يقدر على الكلام ويعيش بمعزل عن المجتمع ، وتتولد لديه عقد نفسية واضطرابات ذهنية وتنقطع الأواصر بينه وبين المجتمع ، وقد يتخلف عقلياً .

يقول الإمام الغزالى : « من فقد السمع عدم روح المخاطبة والمحاورة وحرم من سماع الأصوات الجميلة ، والالحان المطربة وأخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد ، وكالميت وهو حى ، ومن ابتلى بفقد السمع فابتلاؤه موعظة وتعريفه بقدر نعمة الله فى خلقه ولينال بصبره على ذلك حظاً فى الآخرة » .

الخمر وحاسة السمع

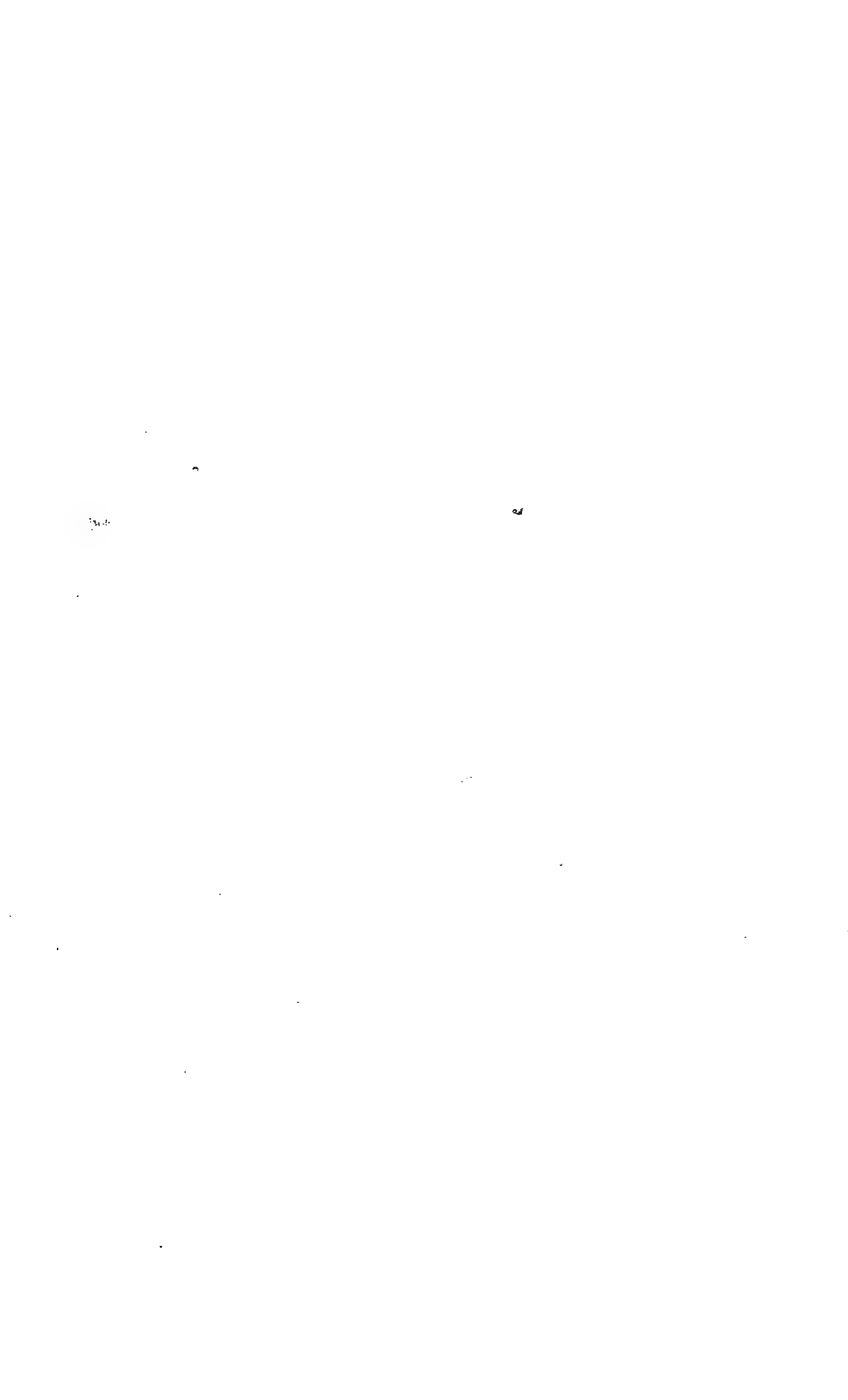
﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة : ٩٠]

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر كل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

لقد ثبت طبياً مما لا يدع مجالاً للشك أن مدمن الخمر Chrmic alcoholism يصاب بنوع من الصمم العصبى نتيجة تأثر العصب السمعى (ويسمى بالعصب المخى الثامن) بالسموم الناتجة عن هذه المادة الكحولية ، حيث إنها تقوم بإتلاف وقتل خلايا هذا العصب . ومن هنا يتبين حكمة الله سبحانه وتعالى فى تحريم تناول الخمر حفاظاً على هذه الحاسة المرهفة الدقيقة . ومما هو جديد بالذكر أن إصابة أو تلف العصب السمعى لا يمكن علاجه أو تعويضه .

كما تؤثر الخمر أيضا على جهاز الأذن الداخلية المختص بحفظ توازن الجسم واتزانه مؤدية إلى قسم الخلايا والأعصاب الداخلة فى تركيب هذا الجهاز مما ينتج عنه اختلال فى حفظ توازن الجسم وانهيار واضطراب فى وظائفه وعدم قدرة الإنسان على مزاولة نشاطه ورسالته التى خلق من أجلها .

الأنف وحاسة الشم
بين
القرآن والسنة والطب



﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾

الأنف أعظم وأعجب جهاز تكييف عرفته البشرية

خلق الله الأنف وهيأه لوظائف عديدة . ومن أعجب هذه الوظائف وأعظمها هو تكييفه للهواء الداخل إلى الجهاز التنفسى : سواء بإمداده بالحرارة لجعله مناسباً ومقارباً لدرجة حرارة الجسم أو ترطيبه وإمداده بدرجة الرطوبة المناسبة ، حتى لا يكون جافاً ينطلق ويحطم أغشية الرئة الدقيقة الرقيقة .

يقول د . سلوم – أستاذ الأبحاث وأستاذ علم وظائف الأعضاء بالكلية الملكية بانجلترا فى كتابه « أمراض الأذن والأنف والحنجرة » : « أن تكييف الهواء هى أعظم وأعجب وظيفة للفشاء الخاطى للأنف » .

والخالق سبحانه وتعالى فى إظهار إعجازه وقدرته فى إمداد الأنف بهذه الوظيفة فكأنما يتحدى البشرية جميعاً على مر العصور والأزمنة ، أن يصنعوا جهاز تكييف صغير فى الحجم يسيطر على مساحة كبيرة تفوق مساحته بمئات المرات ويمد كمية من سائل الدم بالحرارة والرطوبة اللازمة تفوق الكمية الموجودة به بعشر مرات .

ومن العجب العجاب أن هذا الجهاز لا يحتاج إلى وقود أو كهرباء ليعمل ، ولا يحدث صوتاً ولا صخباً حينما يعمل ، ولا يمل

ولا يكسل . ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم** ﴾ .

ولقد هيأ الله سبحانه وتعالى الأنف بتركيب خاص يجعله قادراً على القيام بهذه المهمة – فغشاؤه المخاطى المبطن له يحتوى على كمية كبيرة من الأوعية الدموية ، كما زوده الله – عز وجل – بزوائد ذات نسيج اسفنجى تحتوى على كمية أكبر من الأوعية الدموية ، وحينما يمر الهواء الداخل للأنف على هذه الكمية الهائلة من الأوعية الدموية وما تحويه من دم تتحول درجة حرارة الهواء من ٢٥ درجة مئوية إلى ٣٧ درجة مئوية ، وهى درجة الحرارة المناسبة لجميع التفاعلات الكيمائية والبيولوجية .

أما ترطيب الهواء ، وإمداده بنسبة معينة ومحسوبة من بخار الماء فهى ضرورية ، وهامة لحياة الأهداب الخلوية الموجودة بالغشاء المخاطى المبطن للأنف ، وغياب هذه النسبة من الرطوبة حتى ولو لدقائق معدودة يؤدى إلى توقف هذه الأهداب عن الحركة ، وربما إلى اضمحلالها وفنائها .

ولكن ما أهمية الرطوبة ، ونسبة بخار الماء هذه فى هواء الشهيق الداخل إلى الجهاز التنفسى ؟

إنها تتضح جلية فى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾ [الأنبياء : ٣٠] فعلماء علم وظائف الأعضاء يؤكدون أن عملية تبادل الغازات التى تتم خلال أغشية وحويصلات الرئة لابد أن يتم ويحدث خلال طبقة رقيقة من الماء على سطح هذه الأغشية ، وبدون هذه الطبقة الرقيقة **Film of moisture** لا يتم وصول الاكسجين (عنصر الحياة) إلى أنسجة الجسم المختلفة .

يقول د . سلوم D. Slome أيضا فى نفس الكتاب : إن تشبع هواء الشهيق بكمية الرطوبة والماء إنما هى واحدة من الكفاءات العجيبة للجهاز التنفسى .

وإمعاناً فى إظهار إعجاز الله فى خلقه ، وتحقيراً لما وصلت إليه البشرية من علم قليل ، فإن جهاز التكييف فى الأنف يستطيع أن يكيف نفسه بين الظروف المختلفة والمتباينة من الحرارة والرطوبة ، وفى المناطق الجغرافية المختلفة ، وفى فصول السنة المتعددة .

هل وجد العلم جهازاً لا يتعدى حجمه حجم الأنف به « ترومستات » تعمل فى كافة الظروف والأوقات والأماكن ! بدون توقف ولا ملل وبدون وقود ولا تلف ؟!

الأنف حارس أمين

لقد أودع الله أمانة حماية وصيانة الجهاز التنفسى لحارس أمين يقع فى مقدمة هذا الجهاز الحيوى الهام ، وهو الأنف ، وأمده الله سبحانه وتعالى بالوسائل والإمكانيات التى تجعله قادراً على أداء هذه المهمة الصعبة .

تقوم الغدد المخاطية الموجودة بالغشاء المخاطى المبطن للأنف بإفراز كميات من السائل المخاطى ، الذى يتكون أساساً (٩٦٪) من الماء . وقد قدر العلماء أن الأنف يفرز يومياً ما قيمته لتراً من هذا السائل المخاطى . ووظيفة هذا السائل المخاطى الأساسية أن يقوم بالتقاط حبيبات الأتربة والأجسام الغريبة الموجودة بالهواء لما أودع الله فيه من صفة اللزوجة ، كما زوده الله سبحانه وتعالى بإنزيمات قاتله

للميكروبات التى تحاول أن تغزو الأنف . هذا السائل المخاطى فى حركة وتجديد بإستمرار .

أما الأهداب الخلوية الموجودة بخلايا هذا الغشاء المخاطى المبطن لتجويف الأنف فهى حقاً تستحق وقفة إجلال وتعظيم وإكبار لخالقها الجبار . إنها فى حركة دائبة مستمرة ، جيئة وذهاباً ، يميناً ويساراً ، تتحرك ما يقرب من عشر مرات فى الثانية الواحدة ، وكأنها بحركتها هذه تسبح الخالق عز وجل ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] . أهداب متناهية فى الصغر لا تراها العين المجردة ، ولكن ترى بالمجهر الألكترونى . إن كل خلية تحتوى على مائتين وخمسين من هذه الأهداب . فما عدد الأهداب الموجودة بالأنف كله ؟

وتقوم هذه الأهداب الخلوية المتحركة يدفع السائل المخاطى إلى البلعوم لكى يتخلص منه الجسم بعد ما التصقت به ذرات الأتربة ، والأجسام الغريبة ، حيث تجدد مرة أخرى بواسطة خلايا متخصصة تقوم بإفرازه . وتستغرق عملية التخلص منه وتجديده قرابة نصف الساعة .

إن أى خلل أو عطل فى حركة الأهداب الجلدية أو تجديد السائل المخاطى للأنف يجعل الميكروبات تمر دون أدنى مقاومة إلى الجهاز التنفسى .

حاسة شم خارقة

﴿ ولما فَصَلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون * قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ [يوسف ٩٤ : ٩٦] .

كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير ؟ ومن أين فصلت ؟

يقول بعض المفسرين : إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة قميص يوسف من عند مفارق الطرق فى أرض كنعان ، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدى محدود . وعلى أية حال فهى خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لرسول ونبى كيعقوب من ناحية يوسف وهو رسول ونبى ، فما كان يخطر على بال أحد أن يوسف يعد من الأحياء بعد هذا الأمد الطويل وأن له ريحاً يشمها هذا الشيخ الكليل ، إنى لأجد ريح يوسف ، لولا أن تقولوا شيخ خرف **﴿ لولا أن تفندون ﴾** .. لصدقتم معى ما أجده من ريح الغائب البعيد .

إنها حاسة الشم الخارقة التى وهبها الله لرسول ونبى ولكن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه ، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف **﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾** [يوسف : ٩٥] ضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذى لا يعود .

وإن كان الناس يتخيلون ويتصورون وجود شخصية خرافية

« سوبرمان » أو « الرجل الخارق » يمتلك خوارق السمع والبصر والشم والقوة ما يبهر الناس فليس يصعب عليهم أن يؤمنوا بوجود قوة شم خارقة وهبها الله سبحانه وتعالى لرسول نبى كيعقوب .

الأنف والأذن فى القصاص

﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾
[المائدة : ٤٥] .

أول ما تقرره شريعة الله فى القصاص ، هو مبدأ المساواة .. المساواة فى الدماء ، والمساواة فى العقوبة .. ولم تكن شريعة أخرى – غير شريعة الله – تعترف بالمساواة بين النفوس ، فتقتص للنفس بالنفس ، وتقتص للجوارح بمثلها ، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والأجناس . لا تمييز ولا عنصرية ، ولا طبقية ولا حاكم ولا محكوم كلهم سواء أمام شريعة الله .

وقد خص الله سبحانه وتعالى العين والأنف والأذن والسن بالذكر هنا لأنها من أهم الجوارح فى جسم الإنسان وأكثرها حساسية . وتعرض هذه الجوارح للتلف أو الأصابة أو الفقدان ربما يجعل حياة صاحبه لا قيمة لها ، ويعرضه لنسبة كبيرة من العجز وعدم القدرة على السعى أو مزاولة نشاطه البشرى . فإصابة الأذن قد يؤدى إلى فقدان

حاسة السمع وهى حاسة مهمة فى حماية الإنسان من مخاطر الحياة ، كما يعتمد عليها أيضا فى سعيه على الرزق ومزاولة نشاطه البشرى . أما الأنف فذلك العضو المختص بحاسة الشم ، وهى حاسة معقدة فى التركيب والوظيفة - فإصابة ذلك الجهاز والاعتداء عليه قد يسبب فقدان هذه الحاسة ، وما يترتب عليها من خلل يصيب حياة صاحبها ، وعدم قدرته على ممارسة حياة طبيعية .

وفقدان العين أو الأنف أو الأذن يصيب الإنسان بدرجة كبيرة من التشوه ونقص كبير فى جمال تلك الصورة البديعة التى خلقه الله بها ، وما يلحق ذلك من أضرار نفسية جسيمة تصيب صاحب العين المفقأة أو الأنف المجدوعة أو الأذن المقطوعة . وبذلك اختص القرآن هذه الجوارح بصفة خاصة لما لها من أهمية بالغة فى الشكل والوظيفة . فمثلاً من يصاب بقطع فى اليد أو الرجل يستطيع إلى حد ما أن يزاول نشاطاً أو حياة تتفق وهذا القدر من العجز معتمداً على بقية الحواس والجوارح ، كما أنه يستطيع أيضاً إخفاء هذا التشوه بطريقة معينة فى الملبس أو بالاستعاضة بالأطراف الصناعية الحديثة ، وهذا صعب جداً فى حالة فقد الأذن أو الأنف أو العين .

قال رسول الله ﷺ : « **إذا توضأ أحدكم فليجعل فى أنفه ماء ثم ليستنثر** » رواه الشيخان وأبو داود .

« **أسبغ الوضوء وخلل الأصابع ، وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائماً** » رواه الخمسة ، وصححه الترمذى .

ما كان رسول الله ﷺ ينطقِ عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى : فآيات الله يتلوها ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمة التى أنزلها على قلبه يعظ بها .

ولقد تشربت روح رسول الله ﷺ القرآن ، وامتلأت به وصفت بصفائه وتزكت به ، واستنارت بنوره ، ففاضت بالحكمة . فكان الرسول ﷺ ، يُعلم الكتاب ويُعلم الحكمة ، وما الحكمة إلا أحاديث رسول الله ﷺ ، ينير بها قلوباً ، ويرشد بها عقولاً ، ويقود بها عباد الله إلى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله فإن الحكمة أيضا من عند الله . يقول الله تعالى : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾ .

وسنة رسول الله ﷺ هى المصدر الثانى للإسلام ، ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ **ومن يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ ثم نتيجة ومحصلة هذه الطاعة ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ .

لقد أثبتت التجارب والأبحاث المعملية أنه يكمن بالأنف ملايين الملايين من الميكروبات والجراثيم متعددة الأنواع والأشكال ، فمنها العضوية والعنقودية والسيحية والكروية ، وإذا ما تكاثرت هذه الميكروبات والجراثيم فإنها تشكل خطراً جسيماً على صحة عائلها ، إذ أنها تنتهز فرصة ضعفه لسبب من الأسباب فإذ بها تغزو الجسم غزواً متخذة الأنف قاعدة تنطلق منها .

وقد ثبت علمياً وطبياً بما لا يدع مجالاً للشك أن كثيراً من الأمراض التى تصيب الجسم إنما يدخل مسبباتها من الجراثيم والميكروبات عن طريق الأنف ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : مرض **الأنفلونزا والبرد والسعال الديكى** ، ثم مرض التهاب **الغشاء السحائى والحمى الشوكية** الذى يصيب أغشية المخ والنخاع الشوكى ثم **مرض الدفيتريا** الذى قد يمتد إلى الحلق والحنجرة خانقاً صاحبه .

أما مرض تيبس الأنف (**الاسكلروما**) الذى تهدم أغشية الأنف وهيكله مسببا له تشوهاً مزعجاً ثم يمتد بعد ذلك إلى الحلق والحنجرة محدثاً إصابة فى الأحبال الصوتية وحشرجة وبحة فى الصوت وقد ينتهى إلى خنق صاحبه وقتله قتلاً . أما مرض **الدرن** فإنه يدخل الرئتين والجهاز التنفسى عن طريق استنشاق هواء ملوث بميكروب هذا المرض الذى يهدم مناعة الجسم هدماً ثم يغزو بقية أجهزة الجسم وأعضائه . ثم **التهابات الجيوب الأنفية** التى تحدث بسبب غزو الميكروبات لها من قاعدتها الكبرى بالأنف وما قد تسببه من مضاعفات على الجسم كله تبدأ من المخ والعين حتى العضلات والجلد . أما **التهابات الأذن الوسطى** فما هى إلا نتيجة مباشرة لغزوها بميكروبات وجراثيم تبدأ من الأنف ثم تسير عبر القناة الأنفية السمعية .

ومن هنا تتضح حكمة رسول الله ﷺ فى ضرورة الاستنشاق وغسل الأنف باستمرار وهى ما يسمى بالاستنثار ، وقد جعله ﷺ ثلاث مرات فى كل وضوء أى خمس عشرة مرة فى اليوم . فالاستنشاق هنا يزيل هذه الجراثيم والميكروبات وبطردها طرداً عنيفاً فلا يبقى من آثارها إلا الضئيل ، حتى إذا ما عاودت التكاثر جاء ماء الاستنشاق فى المرات الثانية ليزيلها ويخلص الجسم من أضرارها ، وفى ذلك وقاية للإنسان من الأمراض . وقال الحكماء « **الوقاية خير من العلاج** » .

وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان يقوم فريق من الأطباء بكلية الطب بجامعة الاسكندرية بأخذ مسحات وعينات من إفرازت الأنف من فريق من الناس لا يتوضؤون ولا يستنشقون الماء ، ومقارنتها بمسحات من إفرازات الأنف لفريق آخر من الناس يواظبون على الوضوء والاستنشاق ، وقد أظهرت النتيجة فرقاً بيناً واختلافاً واضحاً بين الفريقين : فهذا أنف يكتظ بميكروبات وجراثيم حاملة للأمراض ، وهذا أنف نقى نظيف .



الحنجـره
بين القرآن والطب



الحنجرة فى القرآن الكريم

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب ٩ – ١٠] .

وهذا كناية عن شدة الرعب ، فإن الخائف يخفق قلبه حتى يخيل إليه أنه قد بلغ إلى حنجرته .

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ [غافر : ١٨] .

الآزفة .. القريبة العاجلة وهى القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربه زاحفة والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون لأنفسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميماً يعطف عليهم ولا شفيعاً ذا كلمة تطع فى هذا الموقف العصيب المكروب !

إنسان .. وبيان

﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾
[الرحمن ١ : ٤] .

إنه هو الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم . خلية ساذجة صغيرة ضئيلة . ترى بالمجهر ولا تكاد تبين .

ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون جنيناً يتكون من ملايين الخلايا المنوعة : عظمية وغضروفية وعصبية وعضلية وجلدية .. ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس ذات الوظائف المدهشة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .. ثم الخارقة الكبرى والسر الأعظم : الإدراك والبيان .. كله من خلية واحدة صغيرة ضئيلة .

كيف ؟ ومن أين ؟ .. من الرحمن وبصنع الرحمن .

فلنتظر كيف يكون البيان ؟ ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ .

إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينفض منها العجب .. الحنجرة والقصبة الهوائية والشعب والرئتان .. اللسان والشفتان والفك والأسنان . إنها كلها تشترك فى عملية التصويت الآلية وهى حلقة فى سلسلة البيان ، وهى على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكى الآلى فى هذه العملية المعقدة ، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالفعل الذى لا تعرف عنه إلا اسمه ، ولا ندرى شيئاً عن ماهيته وحقيقته . بل لا نكاد ندرى شيئاً عن عمله وحقيقته .

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحل ، والخطوات والأجهزة . مجهولة فى بعض مراحلها خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعوراً بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معين . وهذا الشعور ينتقل – لا تدرى كيف – من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية .. المخ الذى يصدر أوامره عن طريق

الأعصاب إلى كافة الأجهزة الميكانيكية للتحرك والنطق باللفظ المطلوب .

واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه .. وهنا تطرد الرئه قدراً من الهواء المخزن فيها يمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التى لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان ، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة بالأنغام ! فيصوت الهواء فى الحنجرة صوتاً تشكله حسبما يريد العقل .. عالياً أو خافتاً . سريعاً أو بطيئاً .. خشناً أو ناعماً .. ضخماً أو رقيقاً ، ومع الحنجرة يتحرك اللسان والشفتان والفك والأسنان لتحرج الصوت فى ثوبه الأخير ثم تكسبه الجيوب الأنفية رنيناً خاصاً ووقعاً موسيقياً حيث يتشكل بضغوط خاصة . ويمر كل حرف على منطقة خاصة فى اللسان ذات إيقاع خاص ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصدر الحرف بجرس معين . وذلك كله لفظ واحد .. ووراءه العبارة والموضوع والفكرة .. عالم عجيب وغريب ينشأ فى هذا الكيان الإنسانى العجيب الغريب بفضل الرحمن وبصنع الرحمن .

تأثير الخمر على الحنجرة والأحبال الصوتية

﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة : ٩٠] .

يقول الدكتور حسن شاهين أستاذ علم الحنجرة بكلية الطب ومستشفى قصر العينى : « المسكرات التى تؤخذ بطريق الشرب تحدث التهابات كثيرة ، إما حادة أو مزمنة ، وينتج عنها التهابات حلقية أو حنجرية أو بلعومية . فضلاً عما تحدثه المسكرات أحيانا من الالتهابات التى تسبب ضيقاً فى البلعوم فتخنقه ، وكثيراً ما تمتد هذه الالتهابات إلى المعدة ، فتحدث أمراضاً يصعب شفاؤها ، وقد تحدث التهابات فى أعضاء أخرى كالكبد والكُلى مما يودى بحياة المريض حتماً » (عن مجلة الإسلام السنة الثالثة العدد ٣٩ سنة ١٣٥٣ هـ – ١٩٥٣م) .

ويؤدى تناول الخمر إلى أصابة الأحبال الصوتية بالالتهابات المزمنة التى ينتج عنها حشرجة وبحة فى الصوت فيصبح غليظاً مزعجاً لارقة فيه ولا عذوبة .

أما سرطان الحنجرة ذلك المرض الخبيث الذى يهلك صاحبه جزاء ما تناول من هذه السموم فهى النهاية الطبيعية والجزاء الأوفى لمخالفة شريعة الله فى تناول ما حرمه .

وتدل الإحصائيات على أن نسبة هذين المرضين فى دول أوربا

وأمريكا أكبر بكثير من نسبتها فى دول الإسلام ؛ لأن أوربا وأمريكا هما موطن الخمر وموطن الداء .

نشرت جريدة الشرق الأوسط [التى تصدر فى لندن فى العدد ٢٤٤ للسنة الأولى فى يوم الجمعة الموافق ١٩٧٩/٤/٢٠ م] عنواناً بارزاً فى صفحتها الأخيرة يحمل العبارة التالية : « ٥٦ ألف فرنسى يموتون كل عام بسبب إدمانهم على الكحول » ، وجاء تحت هذا العنوان ما يلى :

قال تقرير رسمى صدر فى باريس يوم أمس : إن هناك ٥٦ ألف فرنسى يموتون كل عام بسبب إدمانهم على الكحول . وأشار البيان إلى ارتفاع كبير فى عدد المدمنين على الكحول خلال العامين الماضين زاد عن ٣٥ بالمائة . ويضيف التقرير : ويأتى الفرنسيون فى المرتبة الخامسة عالمياً لجهة إدمانهم على الكحول بعد البولنديين والألمان والبريطانيين والهولنديين .

يقول الدكتور أحمد على طه ريان الأستاذ بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر فى كتابه « المسكرات » : « إن للمرء أن يتساءل إذا كان أصحاب هذه النسبة العالية يأتون فى المرتبة الخامسة فياترى كم تكون نسبة أصحاب المراتب الأولى ؟ وإذا كان عدد المدمنين زاد فى العامين الأخيرين ٣٥٪ فإلى أين ستصل الزيادة فى الأعوام القادمة ؟ ولاشك أن هذه الدول وغيرها من الدول التى تترك لمواطنيها الحبل على الغارب فى شأن المسكرات ، إنها تقف فى الجهة العليا من المنحدر الخطر وهى : إن آجلا أو عاجلاً ستهوى إلى القاع مع ما شيدته بسبب هذا المرض الخطير الذى يسرى فى كيان هذه الدول دون أن تهتم بمعالجته بالرغم من نداء المصلحين ورجال الطب فيها وتكوينهم لكثير من الجمعيات المناهضة للمسكرات منذ زمن بعيد » .

صوت منخفض . أدب رفيع وحكمة بالغة

﴿ **وأقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ [لقمان : ١٩] .

والحكمة فى حقيقتها تتضمن معانى العلم الصائب ، والإيمان بالحق والإذعان له ، وإرشاد الناس إلى المنهاج السليم ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ ، وقال ﷺ : « **لا جسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله مالا نسلطه على هلكته فى الحق . ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها** » . والحكمة نور يقذفه الله فى قلب المؤمن الذى يطلب الحق ويتجه إليه ويقصده ، والله سبحانه وتعالى : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء** ﴾ فالمعطى للحكمة هو الله وهو العليم بكل شيء ، ليضع الأمور فى مواضعها فهو لا يعطيها إلا لمن يخلص قلبه ويسلم وجهه .

والحكمة على هذا التوجيه هى علو بالإنسان ، وسمو به ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد آوتى خيراً كثيراً** ﴾ .

والحكمة فى هذه الآية الكريمة تشير إلى الغض من الصوت وفى ذلك أدب وثقه بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته ، وما يُغلظ فى الخطاب إلا سيء الأدب أو شاك فى قيمة قوله أو قيمة شخصه ، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والأسلوب القرآنى يرذل هذا الفعل ويقبحه فى صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ .

أما الحكمة البالغة فى غض الصوت وخفضه فإنه ذلك يحمى الأحبال الصوتية والحنجرة من أمراض كثيرة : منها الالتهاب المزمن للأحبال الصوتية الذى يكسب صاحبه صوتاً أجش مزعجاً ثم ظهور عقد التهابية على هذه الأحبال التى لا علاج لها إلا بالرجوع إلى الصوت المنخفض والأدب فى الحديث ، حتى العلاج بالعقاقير والعلاج الجراحى لا يعيد وظيفة الأحبال الصوتية إلى صورتها الأولى ولا الصوت إلى نغمته الجميلة .

أما سرطان الحنجرة وأورامها الخبيثة فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن خشونة الصوت وغلظة الحديث ، وإجهاد الأحبال الصوتية فوق طاقتها من أهم الأسباب والعوامل المؤدية إلى حدوث هذا المرض الذى يُحطم الحنجرة ، ويُفقد الإنسان القدرة على الكلام ، فمن كان يجهد أحباله الصوتية ويرفع صوته فى الحديث بالأمس لا يستطيع الآن الكلام .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات : ٢] .

استمرار للحكمة فى أدب الحديث والخطاب ، وهو فى هذه المرة يميز شخص رسول الله ﷺ ويميز مجلسه فى قومه .

وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

وقال علماء هذه الأمة إن رسول الله ﷺ يكره رفع الصوت عند قبره كما كان يكره ذلك فى حياته .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله – ﷺ – إلى كل أستاذ وعالم .

عتـاب جميـل

﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ [الانفطار ٦ – ٨] .

يخاطب الله سبحانه الإنسان بأكرم ما فى كيانه وهو « إنسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ، وارتفع إلى أكرم مكان .

ثم يفيض ذلك العتاب الجميل الجليل **﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾** ؟ فجعلك تقصر فى حقه وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ؟ وهو ربك الكريم الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره .

أغدق عليك بإنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى بها تميز وتعقل وتدرك ما ينبغى وما لا ينبغى فى جانبه .

وأغدق عليك بهذا الخلق وتسويته وتعديله ، وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته ، فاختياره هذه الصورة لك منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذى لا يشكر ولا يقدر .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقه تفضلاً

منه رعاية منه ، فقد كان قادراً على أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها .

وهذه الأجهزة المكونة للجسد الإنسانى .. الجهاز العظمي والجهاز العضلى ، والجهاز الجلدى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز الدموى ، والجهاز التنفسى ، والجهاز اللمفاوى ، والجهاز العصبى ، والجهاز البولى ، وأجهزة الذوق والشم والنطق والسمع والبصر كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التى يقف الإنسان مدهوشاً أمامها ، وينسى عجائب ذاته وهى أضخم وأعمق وأدق ما لا يقاس .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان – على إعجازه الواضح – قد يشاركه فيها الحيوان فى صورة من الصور ولكن هناك الروح الإنسانى الخاص ذلك القبس العجيب من روح الله ، هبة الله الكبرى لهذا الإنسان ، وهو الذى به صار إنسانا .

إنه عتاب مذيب .. حين يتصور « الإنسان » حقيقة مصدره ، وحقيقة الموقف الذى يقفه بين يدى ربه ، وهو يناديه ذلك النداء ثم يعاتبه هذا العتاب .

﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ .

فهــرس

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع ٢٩ ٤٠/ ٨٧